ألكلام عن البديع : تاريخه وأقسامه

ديدين فقيه الدّين

مدرّس اللّغة العربيّة بكلية الدّعوة جامعة داتوكرامة الحكومية الإسلاميّة بالو

Abstract

This article deals with one aspect of *balaghah* i.e. *badi'*. As we know *badi'* is a science by which we know some beautiful features of sentences. But how *badi'* emerged in the history of Arabic culture? Who is responsible for the rising of *badi'?* And how many parts *badi'* has? This article tries to answer these questions.

Kata Kunci : *'ilm al-badi',ilm al-balagah, 'ilm al-bayan,'ilm al-ma'ani*

مقدّمة

البديع هو قسم من أقسام ثلاثة في علم البلاغة؛ المعاني، البيان والبديع نفسه. ألبديع لغةً كما جاء في لسان العرب: بدع الشّيء يبدعه بدعا، وابتدعه: أنشأه وبدأه...وفي التّنزيل: "قل ما كنت بدعا من الرّسل" أي ما كنت أوّل من أرسل، قد أرسل قبلي رسل كثير...(إبن المنظور, ج.9, ص.) 351. وفي المنجد: بدع يبدع بدعا الشّيء: إخترعه و صنعه لا على مثال, وبدعه: بدأه وأنشأه. بدع يبدع بدعا وبداعة: كان بدعا أو لا مثيل له (لويس مألوفو ,1986 : 26) أمّا اصطلاحا, فلبديع هو علم يعرف به الوجوه والمزايا الّتي تزيد حسنا وطلاوة وتكسو بهاء ورونقا بعد مقتضى الحاللمحة عن تاريخ البديع.

مصطلح البديع بمعناه الفنّي, قد ذكره الجاحظ (-255 هجرية) بأنّ الرّوّاة أول من أطلقه على المستطرف الجديد من الفنون الشّعرية في أشعارهم فتزيدها حسنا وجمالا. لكن أبا الفرج ذكر أنّ مسلم ابن الوليد الشّاعر العبّاسي كان أوّل من أطلق هذا المصطلح (أحمد الهاشمي، ص. 12).

كان المولّدون من شعراء العصر العبّاسي قد أكثروا في أشعارهم من اصور البيانيّة التي سميّت *البديع*, ككلثوم بن عمرو, ومنصور النّمري ومسلم بن الوليد. وهذه ليست ظاهرة غريبة بعد خروج العرب من ولايتهم واتّصلوا بالأمم الأخرى حتى دخل الترف مجتمعهم الجديد وتأنّقوا في حياتهم. ومن ثَمّ كان لا بُدّ أن يصطبغ أدبهم بهذه الصّبغة الجديدة وأن يكثر الشّعراء من البديع. وكان بَشّار وابن هرمة ومسلم بن الوليد وأبو تمّام من حمل هذا الإتّجاه. فشاع وانتشر هذا اللّون في الأدب, ولج المولّدون في اصطناعه وتباهوا بأنّهم السّابقون إليه .(نفس المرجع, ص. 197-198).

ولكن مع أنّ الشعرآء العبّاسي قد أكثروا البديع في أشعارهم, لما يألفون كُتبا يُبحَث فيها البديع. وكان أول من ألّف في البديع هو عبدالله بن المعتز العباسي الذي قد ألّف *كتاب البديع* سنة 274 هـ. يقول ابن المعتز في ثُنايا الكتاب إنه صنّفه في سنة 274 هـ, وقد مضى منذ السطور الأولى فيه يُعلن أنه صنّفه ليدلّ دلالة قاطعة على أنّ ما يكتره المحدّثون ممّا يُسمّى بديعا موجود من القديم في القرآن والحديث وكلام الجاهليّين والإسلاميّين...(شوقي الضيف , 67).

والبديع عنده خمسة أنواع: الإستعارة, والتّجنيس, والمطابقة, أعجاز الكلام على ما تقدّمها, والمذهب الكلامي. وقد قال بعد أن تكلّم عليها : قد قدّمنا أبواب البديع الخمسة وكمل عندنا.(أحمد مطلوب, المرجع السابق, ص. 200) وبعد تأليف ابن المعتز كتاب البديع, جائت التّآليف الأخرى التي تبحث في البديع. معاصره قُدّامة بن جعفر (- 337 هـ) جمع من البيع, بعضها ممّا ذكره ابن المعتز, وبعضها جديد كالتقسيم, والترصيع, والمقابلات وغيرها. ثم جاء أبو هلال العسكري (- 395 هـ) الذي عقد الباب التاسع من كتاب *الصناعتين* لشرح البديع, وهو عنده مختلف الصور البيانيّة كالإستعارة والمجاز والمطابقة. ثم الباقلاّني (-403 هـ) قد ذكر في كتابه *إعجاز القرآن* كثيرا من الفنون البلاغيّة كالإستعارة, والتشبيه والغلو والمماثلة. وجآء فيما بعد ابن الرشيق القيرواني (- 463 هـ) الذي أدخل في البديع المجاز والإستعارة والتمثيل والتشبيه وغيرها...وبعد ذلك جآء عبد القادر الجرجاني (-471 أو 474 هـ), والبديع عنده فنون مختلفة كالإستعارة والتشبيه والتمثيل والتجنيس وغيرها. ثم جآء ابن المنقذ (- 584 هـ) الذي جمع في كتابه *البديع في نقد الشعر* خمسة وتسعين فنّا بلاغيّا. وبعد ذلك جآء ابن أبي الأصبع المصري (- 654 هـ) الذي ذكر موضوعات بلاغية تزيد على المأة, منها الإستعارة, والتشبيه, والنوادر,

والتنكيب وغيرها. ثم السكّاكي (– 626 هـ) ولم يذكر منه إلاّ ستة وعشرين فنّا. وعقب بعد ذلك بدر الدّين ابن مالك (– 686 هـ) الذي لخص القسم الثالث من *مفتاح العلوم* في كتابه *المصباح* وأطلق مصطلح البديع على القسم الثالث من البلاغة وهو المحسّنات. زقال عن المحسّنات إنها مما يكسو الكلام حلة التزيين ويرقيه أعلى درجات التحسين. (نفس المرجع, ص. 200-207)

وإلى جانب تلك الكتب, هناك المؤلّفات التي تسمَّى البديعيّة, وهي قصيدة تتضمن فنون بلاغية ومعظمها في مدح النبي محمّد صلّى الله عليه وسلّم من بحر البسيط وعلى روي الميم. أمّا بالنسبة إلى نشأتها فقد اختلف الباحثون عنها. فذهب الدّكتور زكي المبارك إلى أنّ أبا عبد الله محمّد بن أحمد المعروف بابن جابر الأندلوسي (– 780 هـ) ابتكرها ورسم أصولها. ولكن ابن معصوم المدني ذهب إلى أن صفيّ الدين الحلي أسبق من ابن جابر الأندلوسي لأنه توفي في سنة 750 هـ, وتوفي الثاني في السنة 780 هـ. ولكن الدكتور أحمد مطلوب رأى أن ذلك ليس دليلا أكيدا. وقد يكون ابن جابر الأندلوسي أسبق لأنه كان تخطى الخمسين حين مات الحلّي. ولعلّه نظمها في هذا السن أو قبل ذلك بكثير فيكون أسبق في هذا المضمار.

ثم تولّى بعد ذلك نظم البديعيات وظهر شعرآء عنوا بها كوجيه الدين عبد الرحمن ابن محمد اليمني (–800 هـ), وشرف الدين عيسى بن حجاج بن عيسى بن شداد السعدي القاهري (– 807 هـ), وزين الدين شعبان بن محمد بن داود الأثاري القريشي (–828 هـ). وبعد ذلك ظهر في القرن الثامن من أديب ناقد كان له أثر كبير في البديعيات. فنظم بديعية ضمن كل بيت فيها لونا جديدا وأشار إلى اسمه في البيت نفسه وسماها "تقديم أبي بكر" وأبياتها مائة واثنان وأربعون. ورأى أن هذه البديعية لن تكون ذا فائدة عظيمة إن بقيت أبيات شعر تُحفظ وتُروى من غير تبصر بفنونها البديعية, فوضع لها شرحا سماها "خزانة الأدب وغاية الأرب". وهذا الشاعر هو أبو بكر علي بن حجّة الحموي (– 837 هـ) الذي وجد عصره يزخر بالبديعيات. أحمد مطلوب, نفس المرجع ص. 213, وأيضا أنظر شوقي الضيف, المرجع السابق, ص. 361 – 217

ثمّ للسيوطي بديعيّة سمّاها "نظم البديع في مدح خير شفيع" في مائة و أربعين بيتا...غير أن بديعيته لم تنل من الشهرة ما نالته بديعية عائشة الباعونية التي تضمن مائة وثلاثين بيتا سمّاها "ألفتح المبين في مدح الأمين". ونظم الشعرآء بعد ذلك البديعيات مثل علي بن دقمان الحسيني

(-940 هـ), و عبد الرحمن الحميدي (- 1005 هـ) وصدر الدين بن معصوم الحسيني المدني (-1117 هـ). ولعبد الغني النابلسي المتوفّ سنة 1143 هـ بديعيّتان, إحداهما باسم "نسمات الأسحار في مدح النبي المختار." وهناك بديعيّات أُخَر, منها بديعية أبي الوفا بن عمر العرضي الشافعي, وبديعية قاسم بن محمد البكرة جي (- 1169 هـ) وبديعية محمود صفوة الساعتي (- 1290 هـ) وبديعية عبد الهادي بن رضوان نجا الأبياري (- 1305 هـ) وعبد القادر الحسيني الأدهمي الطرابلسي وعبد الحميد قدس بن أحمد علي الخطيب. ونظّم المسيحِيّون بديعيات في المسيح عليه السلام, ومنهم الخوري نيقولاوس بن نعمة الله الصائغ (- 1179 0 هـ) و الخوري أرسانيوس الفاخوري (- 1301 هـ) الذي التزم في إحدى بديعيّاته التورية, عن اسم النوع البديعي. أنظر شوقي الضيف, المرجع السابق, ص. 363-365 وهذه البديعيات تدلّ على اهتمام عظيم بفنون البديع عند الشعرآء. وبالجملة أقول إنّ البديع قد تطوّرَ منذ نشأته الأولى.

أقسام البديع

ألبديع قسمان: قسم يرجع إلى اللفظ ويسمى "المحسّنات اللفظية" وقسم يرجع إلى المعنى ويسمى "المحسنات المعنويّة". و كلٌّ من القسمين ينقسم إلى عدة أنواع. وفي هذا البحث سوف أقوم بالتقسيم المجمل لا المفصل لضيق المكان.

أنواع المحسنات اللفظية

1) ألجناس, هو أن يتشابه اللفظان في النطق و يختلفا في المعنى. وهو نوعان:

الأول الجناس التام : وهو ما اتّفق فيه اللفظان المتجانسان في أربعة أشيآء: نوع الحروف, وعددها, وهيئاتها الحاصلة من الحركات والسكنات, وترتيبها مع اختلاف في المعنى.

فإن كان اللفظان المتجانسان في نوع واحد كاسمين سُمِّي الجناس *مماثلا*, منه قوله تعالى : ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة. والمراد بالساعة الأولى يوم القيامة, وأما الثانية فالمدّة من الزمان. وإن كان اللفظان من نوعين كاسم وفعل, سُمِّي الجناس *مستوفيا*, منه قول محمد بن عبد الله بن كناسة الأسدي في رثآء ابنه: و سمّيته يحيى ليحيا فلم أكن - إلى ردّ أمر الله سبيل. الأول اسم امرئ والثاني فعل مضارع.

الثاني : الجناس غير التام, وهو ما اختلف فيه اللفظان في واحد أو أكثر من الأربعة السابقة.

فإن اختلف في **هيئة الحروف** سمي *جناسا محرفا*, منه قوله تعالى "ولقد أرسلنا فيهم منذِرين فانظر كيف كان عاقبة المنذَرين

وإن اختلف في **عدد الحروف** سمي *جناسا ناقصا*, إما بزيادة حرف كقوله تعالى : والتفّت الساق بالساق إلى ربك يومئذن المساق وإما بزيادة أكثر من حرف واحد, كقول النابغة : فيا لك من حزم وعزم - جديد الردى بين الصفا و الصفائح.

وإن اختلف في **نوع الحروف** اشترط ألاّ يكون الإختلاف بأكثر من حرف, وذلك على وجهين : إما متقارب المخارج كقول الحريري "بيني وبين كني ليل دامس و طريق طامس. وإما غير متقارب المخارج كقوله تعالى "ويل لكل همزة لمزة

وإن اختلف في **ترتيب الحروف** سمي جناس القلب, وهو ضربان : إما قلب الكل كقولهم "حسامه فتح لأوليآئه و حتف لأعدآئه. وإما قلب البعض, كما جآء في الخبر : "أللهم استر عوراتنا و آمن روعاتنا.

2) الإقتباس, وهو أن يضمن المتكلم منثورة أو منظومة, شيئاً من القرآن أو الحديث على وجه لا يشعر بأنه ليس منهما. فمثاله من القرآن كقول الحريري: "أنا أنبّئكم بتأويله وأميّز صحيح القول من عليله"

3) ألسجع : هو أن تتواطأ الفاصلتان في النثر على حرف واحد. وهو على ثلاثة أضراب :

- ألمرصع : هو ما اتفقت ألفاظ إحدى الفقرتين أو أكثرها ما يقابله من الأخرى في الوزن والتقفية كقو الحريري : "فهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ويقرع الأسماع بزواجر وعظه"
- ألمتوازي : هو ما اتفقت فيه الفقرتان في كلمتين الأخرتين نحو قوله تعالى "والمرسلات عرفا, فالعاصفات عصفا."
- المطرف : هو ما اختلفت فاصلتاه في الوزن والتقفية واتّفقا في الحرف الأخر كقوله تعالى "ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا."

أنواع المحسنات المعنوية

4) ألتورية : هي أن يذكر المتكلّم لفظا له معنيان--قريب غير ظاهر و بعيد خفي وهو المراد. ويورى عنه بالمعنى القريب فيتوهم السامع لأول وهلة أنه يريده, وهو ليس بمراد, كقول سراج الدين الوراق :

أصون أديم وجهي عن أناس - لقآء الموت عندهم الأديب

ورُبّ الشعر عندهم بغيض - ولو وافى لهم حبيب

فكلمة حبيب في ذلك الشعر لها معنيان : أحدهما المحبوب وهو المعنى القريب الذي يتبادر إلى الذهن بسبب التمهيد بكلمة بغيض, والثاني إسم أبي تمام الشاعر وهو حبيب بن أوس, وهذا المعنى البعيد وقد أراده الشاعر ولكنّه تلطف فورّى عنه وستره بالمعنى القريب.

5) ألطباق : هو الجمع بين اللفظين المقابلين في المعنى. وهما قد يكون إسمين كقوله تعالى "وتحسبهم أيقاظا و هم رقود." أو فعلين كقوله "تؤتي الملك من تشآء وتنزع الملك ممن تشآء."

والطباق ينقسم إلى قسمين *طباق الإيجاب* وهو ما لم يختلف فيه الضدان إيجابا وسلبا كما تقدّم. و طباق *السلب* وهو الجمع بين فعلي مصدر واحد مثبت ومنفي, أو نهي و أمر. كقوله تعالى "ولكن أكثر الناس لا يعلمون , يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا." وقوله "ف لا تخشوهم واخشوني."

6) ألمقابلة, وهي أن يُؤتَى بمعنيين أو معان متوافقة, ثم يؤتى بما يقابل ذلك. فمقابلة اثنين باثنين كقول الشاعر : "من أقعدته نكاية اللئام أقامته إعانة الكرام." والثلاثة بالثلاثة كقوله تعالى : "يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث" والأربعة بالأربعة كقوله أيضا : "فأمّا من أعطى واتقى وصدّق بالحسنى فسنيسّره لليسرى, وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى."

7) حسن التعليل, وهو أن ينكر الأديب صراحة أو ضمنا علة الشيء المعروفة وياتي بعلة أديبة طريفة تناسب الغرض الذي يقصد إليه, يعني أن الأديب يدعي لوصف علة مناسبة غير حقيقة. ولكن فيها حسن وطرافة, فيزداد بها المعنى المراد الذي يرمى إليه جمالا وشرفا, كقول المعرّي في الرثآء :

وما كلفة البدر المنير قديمة - ولكنها في وجهه أثر اللطم

8) تأكيد المدح بما يشبه الذم وعكسه.

تأكيد المدح بما يشبه الذم نوعان :

الأول, أن يستثنى من صفة ذم منفية عن الشيء, صفة مدح بتقدير دخولها, كقول الشاعر :

ولا عيب فيهم إلا أن سيوفهم - بهنّ فلول من قراع الكتائب

والثاني, أن يثبت لشيء صفة مدح ثم يؤتى بعدها بأداة استثناء تليها صفة مدح آخر كقول الشاعر :

ولا عيب فيه غير أني قصدته - فأنستني الأيام أهلا وموطنا

ثم تأكيد الذم بما يشبه المدح أيضا نوعان :

الأول, أن يستثنى من صفة مدح منفية عن الشيء, صفة ذم بتقدير دخولها, كقول الشاعر :

خلا من الفضل غير إني - أراه في الحمق لا يجارى

والثاني, أن يثبت لشيء صفة ذم ثم يؤتى بعدها بأداة استثناء تليها صفة ذم آخر كقول أحد: "فلان حسود إلا أنه نمام."

9) أسلوب الحكيم, وهو أن يتلقي المخاطب بغير ما يترقيه, إما بترك سؤاله والإجابة عن سؤال لم يسأله, وإما بحمل كلامه على غير ما كان يقصد, إشارة إلى أنه كان ينبغي له أن يسأل هذا السؤال أو يقصد هذا المعنى كقوله تعالى : "يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحجّ."

نجد في هذه الآية أن أصحاب الرسول سألوه عن الأهلة لِمَ يبدو صغيرة وتزداد حتى تتكامل ثم تتضآئل حتى لا ترى. وهذا من مسائل علم الفلك يحتاج إلى دراسة دقيقة و طويلة في فهمها, فأجابها بأنها مواقيت للناس في حياتهم.

الخاتمة

من البحث الوجيز السابق يمكن لنا أن نقدم النتائج الآتية :

1) أن البديع هو علم يبحث فيه ويعرف به الوجوه التي تزيد الكلام حسنا وطلاوة بعد مطابقة لمقتضى الحال.
2) أن البديعي بمعناه الفني قد تطور منذ وقت طويل في الزمن العباسي في أيدي شعرآئهم. وكان أول من ألف في البديع هو عبد الله ابن المعتز العباسي الذي قد ألف *كتاب البديع* سنة 274 هـ.
3) أن البديع ينقسم إلى قسمين : المحسنات اللفظية و المحسنات المعنوية.

المراجع

القرآن الكريم

إبن المنظور, *لسان العرب*, (بيروت : دار الصدر, د.ت.) ج. 9

أحمد الهاشمي : *جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع*, (إندونيسيا: مكتبة دار إحياء الكتب العربيّة) ط. 12

أحمد مطلوب, *فنون البلاغيّة ألبيان – ألبديع*, (د.م. دار البحوث العلميّة, 1975)

شوقي الضيف *البلاغة تطوّر وتاريخ*, (القاهرة : دار المعارف, د.ت.)

عبد المتعال الصعيدي, *بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة* (د.م. مكتبة الآداب, د.ت.)

لويس مألوف : *ألمنجد في اللّغة والإعلام*, (بيروت: دار المشرق, 1986) ط. 28

علي الجارمي و مصطفى أمين *البلاغة الواضحة*, سورابايا, شركة بوغكول, 1957 ,ط. 12